مشروع نظرية في

التكوين الشعري

بقلم حسين الضامن

قد يخطيء من يبحث للشعر عن تعريف محيط ، وذلك لسببين : اولهما ان تعريفاً ما لا يمكن ان يحيط كل الاحاطة بما تعطيه لفظة « الشعر » من معنى ، ففي طبيعة « التعريف » تحديد لا ترضاه طبيعة « الشعر » ، وثانيهما ان التعريف بمعناه التحديدي ، حتى لو وجد بحالة ارغامية ، يكون داخلاً ضمن التأريخية التي تقلل من شأن المادة ، فتختزل المكان ولا تسلط ضوءها الا على الزمانية التي تكون المادة ، موضوع التأريخ ، فتحركه ضمن مجالها .

والتأريخية على هذا ، هي عيش زمانية الموضوع على حساب اضمحلال مكانيته . نلحظ ذلك بجلاء خلال تأريخ النتاج الفكري خاصة . والشعر عندما يستحيل الى تعريف ويدخل في المجال التأريخي ، يبدأ تدريجياً عملية تقلص خطوطه المميزة ، اي انه يبدأ عملية التحول من المكانية الى الزمانية .

ان اي تعريف ، غير تأريخي ، للشعر يخرج عن كونه تعريفاً ، ويتحول الى معرفة طبيعة الشعر ودوافع واشكال تكوينه والمراحل التي يمر بها هذا التكوين .. ان هذا ما سنأخذ في تبيانه .

قد نلحظ ظاهرة واحدة على ماسنقوله عن الشعر ، وهي ان الفنون الاخرى وكذلك النثر ، تصدر عن نقطة الانطلاق نفسها التي يصدر عنها الشعر .. وليس في هذا ما يسيء .

ان هناك شيئاً واحداً يجب ان يوجد كي تبدأ سلسلة التكوين الشعري ، هذه السلسلة الطويلة العريضة التي قلما يفكر فيها قارىء الشعر ومتذوقه .. ان « الموضوع » هو الشيء الاول الذي يجب ان يوجد ؛ ولا اعني بالموضوع ما يعنيه دارسو الشعر ، بعد ان « يتكون » من انه « هو المضمون » او الفكرة التي توجد راسبة في ما يسمونه « الشكل » ؛ لا اعني بكلمة « الموضوع » ما يعنيه هؤلاء ، لان « الموضوع » هنا وجود قبل وجود الشعر ، بل هو علة اولى لوجوده ، اعني « بالموضوع » المادة الاولى التي توجد في الخارج ، خارج الذات الفردية للانسان ، وما يسمى « بالمؤثر » . ان هذا المؤثر له طبيعة خاصة هي الاشعاع والبث خارج المؤثر نفسه ، ومادة البث .. ان كان له مادة — هي ما يدعى « بالتأثير » .

ويتضح هذا التأثير جلياً اذا وجد شيء عنده قابلية على الاستجابة ولكن « المؤثر » يبث « تأثيره » ان وجد الشيء الذي لديه القابلية على الاستجابة او لم يوجد .. ان الطفل الذي يبكي او يضحك ، هذا « المؤثر » الذي يظهر الحزن او السرور يبث « تأثيره » في كل مسافة بينية ان وجد الشاعر الذي يلتقط ويستجيب وان لم يوجد .

ان « المؤثر » الذي يبث « تأثيره » يعطي حياة متحركة لهذا التأثير ، لأن « المؤثر » نفسه لا يكون « مؤثراً » إلا بعد ان توجد فيه الحياة الفنية التي تؤهله لعملية « بث التأثير » .

ولكي يكون « التأثير » ايجابياً ، وجب وجود الشيء المستجيب وجوداً مستعداً للانفصال والاستجابة ، ان هذا الشيء ما هو الا مادة او موضوع آخر يختلف تعقيداً وميكانيكية عن الموضوع الاول « المؤثر » .

وهنا ، في بحث الشعر ، يكون الموضوع المستجيب هو الشاعر بالذات ، هذه « الآلة » التي ليس لها الفضل ، كل الفضل ، في ايجاد الشعر وتكوينه .. اننا يجب الا نؤله الشاعر ، لان ما يقوم به الشاعر من عمل فني يستطيع ان يقوم به اي فنان « مستجيب » آخر .. وواضح كما يقول « اليوت » ان النقد النزيه والتذوق الرفيع يجب الا يتجها الى « الشاعر » هذا النوع الخاص من انواع الآلة .

الشاعر هذا الموضوع المستجيب ، انت لا تسميه شاعراً في المراحل الاولى من عملية التكوين الشعري ؟ انت وانا نسمي الشخص شاعراً اذا « انتج » شعراً ، ولكن من الممكن ان يدعى الشخص شاعراً قبل الانتاج ، شاعراً خلال عملية التكوين .. انه مادام يحمل الاستعداد للاستجابة للتأثير الصادر من الموضوع المؤثر ، فهو شاعر .. وقد لا يكون شاعراً عندك الآن ، كما قد لا يكون شاعراً عندك

ابنتي

نامي على يدي
يا بسمة الغد
يا همسة الامل
والحب .. يا نهاد
. . . .
نامي .. مضى النهار
وعدتُ مجهداً
أسابق الظلام
لبيتنا الصغير
اسأل في انبهار
عن حبي الكبير
عن طفلتي نهاد
فاسمع الكثير
من امك الحنون
عن لثغة جرت
من ثغرك الجميل
ولفظة شموس
تكسرت غناء
لم يحوها قاموس!
وانت في المساء
ابهى من القمر
وزنبق الوهاد
وانت في المساء
سعادة وزاد
فحلقة السمر
مدارها نهاد
. . . . .
وانت في الصباح
كبسمة الربيع
على فم الورود
وانت في الصباح
طياشة اليد
لم ينج لي كتاب
لم ينج لي قصيد
يضمه الورق
فكل ما اراه
في غرفتي مزق
والقطة السوداء
ان هوّمت .. تموء
تموء في الم
وتطلب النجاء
فذيلها أسير
في كفك الصغير
وانت في انتشاء!
. . . .
بقيت يا نهاد
لقلبي الضياء
في دربي البهيم
وكل ما اريد
من هذه الحياة
العود في المساء
اسابق الظلام
لبيتنا الصغير
اسأل في انبهار
عن حبي الكبير
عن طفلتي نهاد

كمال نشأت

القاهرة — من (رابطة النهر الخالد)

بعد العملية اذا لم يكن قد انتج شعراً . ان مجرد وجود القابلية على الاستجابة لدى شخص ما يجيز اعتبار هذا الشخص شاعراً ، بوجه من الوجوه ، حتى لو لم يكن قد انتج شعراً بعد . ان استعداد الشاعر للاستجابة قد يكون فطرياً وجد بوجود العواطف المختلفة في النفس الانسانية الشاعرة . واذا صحت فطرية العاطفة والغريزة تصح فطرية الاستعداد للاستجابة ، لانه من الممكن الظن ان للعاطفة صفة طبيعية تتمثل في ميلها للاخذ والسحب ، اي في اسفنجيتها التي تمص التأثيرات المختلفة ، وعملية المص هذه ليست سلبية بحال من الاحوال ، فالعاطفة لا تقضي على التأثير عندما تمتصه ، والعملية ايجابية تعويضية ، « امتصاص » ثم « تمثيل » ، وهذه العلية اعني تلامس التأثير بالموضوع المتأثر تسير بشكل قد يخلو لبعضهم ان يسميه اثيرياً ، ولكنه بلا شك ، يعتمد على الحواس التي هي واسطة التماس ، ونقل التأثير الى نقطة التأثر ، العاطفة المستجيبة عند الشاعر . وهنا في هذه النقطة تحدث استجابتان او استجابة ذات طرفين احدهما يتعلق بالعاطفة ، اي الموضوع المتأثر ، والآخر يتعلق بالتأثير نفسه ، فيتم اتصال بين التأثير وبين العاطفة ويصبح بشكل « تمازج » يتبعه « حبل » وتكوين « نطفة » فنية ، يحلو للبعض ان يسميها التسمية الغامضة : « الالهام » او « الحدس الراقي » . ان ذلك يحدث في « داخل » الانسان ، وبه تفقد العملية استقلالها وتتحول من كونها الخارجي الى الذاتية الانسانية . ان « النطفة الفنية » تبقى تجول وتتحرك في دخيلة نفس

١ « الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » تأليف مصطفى سويف . فصل « عملية الابداع - مشكلة الالهام » ص ١٧٥ - ١٨٣ .

لموضوع المستجيب ، الشاعر .. وبوجود امكانيات خارجية وشكلية لدى الشاعر ، تستند اول ما تستند ، على قدرة اسلوبية ، او قدرة على « القولبة » والسبك يتم بواسطتها افراغ النطفة الفنية الى الخارج .

وهنا قد يكون هذا الافراغ[1] بشكل «لوحة » اذا كانت امكانيات الشاعر على « القولبة » امكانيات من نوع خاص يمكن ان تسمى إمكانيات التلوين والتظليل ، وقد يكون الافراغ « سيمفونية » او « تمثالاً » او « سوناتا » لنفس السبب المتعلق بنوعية الامكانيات الشكلية . ومن هذا نرى ان الفنون الاخرى ، من غير الشعر ، تصدر عن نفس نقطة الانطلاق التي يصدر عنها الشعر ، فيحدث التباين شكلياً في المراحل النهائية لعملية التكوين .

ان للامكانيات الشكلية عند الشاعر اهمية كبرى ، وعند هذه الامكانيات يتمايز الناس ويختلفون فيكون شاعراً من كان اقدر الناس على الافراغ بواسطة هذه الامكانيات . والقدرة على الافراغ اذا لم توجد لدى شخص يحس بتجربة شعورية اعتملت في دخيلة نفسه وبدأت تتحرك ، نتيجة لقوة التأثير الصادر عن الموضوع المؤثر ، ولقوة التفاعل المستجيب مع العاطفة ، ان انعدام القدرة على الافراغ ، عند مثل هذا الشخص يسيء إساءة كلية الى الفنان ، ويميت كثيراً من الناس الذين يمكن ان يكونوا فنانين يوماً ما ، اذ يحدث هذا الموت ببقاء ما سمي « بالنطفة الفنية » في نفس الموضوع الحاس المتأثر ، ويبدأ التكدس الكبير للتجارب الاخرى عليها فتطمس تلك النطفة وتمحي خطوطها فتتلاشى . وإذا ذهبنا مع علماء النفس فيما يذهبون اليه صار من الممكن القول ان النطفة الفنية تدخل في مجال اللاشعور ، ذلك العالم المجهول ، واذا بقيت هناك نامت او قل ماتت اذا لم تكن لصاحبها القدرة على الافراغ بواسطة الامكانيات الشكلية ، واذا لم توجد الظروف المبررة « لقفزها » من منطقة اللاشعور الى منطقة الشعور الواعي ، وحيذاك يبدأ الافراغ بالأشكال .

لنعد الى الشعر ، فهو ، في المرحلة الاخيرة من التكوين ، عبارة عن رسم بغير الالوان والخطوط للوحة تسمى «قصيدة» . ان هذا الرسم يتم بالالفاظ المثقلة بالايحاء والتعبير .. فالشاعر اذن هو امهر من يستطيع ان يرسم لوحته الشعرية ، واحسن الشعراء اكثرهم تقنية واجلهم رسماً لتلك اللوحة ، لان المهمة الاخيرة التي بقيت على عاتق الشاعر ، هي ان « يعبر » ادق واكمل تعبير ، ولكي تكون عملية التكوين الشعري عملية ايجابية وجب ان تكون اكثر استطاعة على التعبير ونقل التجربة الشعرية الى « مستهلكيها » من قراء الشعر ومتذوقيه . ولكي تكون القطعة الشعرية معبرة بأمانة عن التجربة ، وجب ان يكون الشاعر ماهراً جداً في كيفية استغلال امكانيات « القولبة » الشكلية ولكي يهذب ويوسع هذه الامكانيات هناك وسائل دراسية كثيرة يعرفها كل منا .

وفيما يخص متذوق الشعر ، يجب ان تحدث اعادة للتجربة ، او اجترار معكوس تؤديه القصيدة للمتذوق . ان نقل التجربة لهذا المتذوق لا يكفي ، والمهم ان يتمثل المتذوق التجربة الشعرية فيعاد بذلك تمثيل نفس الدور معكوساً عن القصيدة . فقراءة الشعر اذن ما هي الا اعادة للتجربة الشعرية ، لان تمثل الفنون عامة يستند على اجترار التجربة التي تتضمنها تلك الفنون اجتراراً واعياً وايجابياً .

البصرة

خيري الضامن

[1] الافراغ هنا – بعكس مفهومه العلمي كوظيفة لطرح المواد الضارة من الجسم الحيواني او البشري – هو تجسيد الفكرة الفنية ، النطفة ، وتموضعها بشكل اثر فني ملموس ، يخرج عن ذاتية الفنان الى استهلاكية المتذوق .

صدرت حديثاً

الطبعة الثانية من

تاريخ الشعوب الاسلامية

للعلامة كارل بروكلمن

وهو يقع في خمسة اجزاء

دار العلم للملايين